أول مقبرة في تاريخ الإسلام

البقـــيع

مزار الأئمة و الصحابة و أمهات المؤمنين

«يا مَوالِيَّ يا أَبْناءَ رَسُولِ الله، عَبْدُكُمْ وَابْنُ أَمَتِكُمْ الذَّلِيلُ بَيْنَ أَيْديكُمْ وَالمُضْعفُ في عُلُوِّ قَدْرِكُمْ وَالمُعْتَرِفُ بِحَقِّكُمْ، جاءكُمْ مُسْتَجيراً بِكُمْ قاصِداً إلى حَرَمِكُمْ مُتَقَرِّباً إلى مَقامِكُمْ مُتَوَسِّلاً إلى الله تَعالى بِكُمْ، أَأَدْخُلُ يامَوالِيَّ، أَأَدْخُلُ ياأَوْلِياءَ الله، أَأَدْخُلُ يامَلائِكَةَ الله المُحْدِقِينَ بِهذا الحَرَمِ المُقِيمِينَ بِهذا المَشْهَدِ».

من زيارة «أئمّة البقيع» عليهم السلام



قباب البقيع قبل هدمها

تحقيق: أحمد الحسيني

البقيع، أو "بقيع الغَرْقَد" كما هو اسمه في الأصل، له في قلب كل مسلم مكانة خاصة جداً، تنشأ من حديث رسول الله ﷺ عن البقيع وتكرّر زياراته له. ولو جمعت روايات البقيع ومناسباتها لشكّلت مجلّداً كبيراً.

والبقيع، لغةً، الموضع الذي فيه أروم الشجر من ضروب شتى... والبقيع من الأرض: المكان المتّسع، ولا يُسمّى بقيعاً إلاّ وفيه شجر. أمّا الغرقد فهو كبار العوسج، وهو شجر من شجر الشوك.

في البقيع قبور أعداد كبيرة من أهل البيت عليهم السلام والصحابة وأمهات المؤمنين والتابعين. وممّن دُفن في البقيع من أهل البيت عليهم السلام، الأئمة: الحسن المجتبى السبط الأكبر، وعلي بن الحسين السجاد زين العابدين، ومحمد بن علي بن الحسين الباقر، وابنه جعفر الصادق عليهم السلام.

وعندما استولى الوهابيون على الحجاز عمدوا إلى هدم القباب والمباني التي كانت قائمة على قبور الأئمة عليهم السلام (أنظرالصورة)، ولم يجرؤوا على هدم قبة رسول الله ﷺ، رغم محاولتهم ذلك.

قال المؤرّخ الجبرتي في تاريخه: «لما استولت (الوهابية) على المدينة المنورة هدموا القباب التي فيها وفي ينبع، ومنها قبة أئمة البقيع بالمدينة، لكنهم لم يهدموا قبة النبي صلي الله عليه وآله، وحملوا الناس علي ما حملوهم عليه بمكة، وأخذوا جميع ذخائر الحجرة النبوية وجواهرها، حتي أنهم ملؤا أربع سحاحير من الجواهر المحلاّة بالألماس والياقوت العظيمة القدر، ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرّد، و نحو مئة سيف ملبّسة قراباتها بالذهب الخالص، وعليها ياقوت، و نصابها من الزمرّد».

والخلاف كبير جداً ودائم بين الشيعة والسنة من جهة وبين الوهابيّين حول الموقف من قباب البقيع والبناء على القبور عموماً.

وها هي مراقد الأولياء والأئمة والصلحاء في جميع ديار الإسلام الشيعية والسُنيّة مقصد المؤمنين لقراءة الفاتحة أو الزيارة، والتبرّك واستلهام الدروس والعِبر قربةً إلى الله تعالى وحده لاشريك له، إلا أن الوهابيّين يصرّون على مفارقتهم جماعة المسلمين.

أصدر أحدهم ويعرف بـ(ابن جبرين) فتوى نشرها في موقعه الإلكتروني، وذلك بتاريخ 7/2/2007 جاء فيها: «فالواجب هدم تلك الأبنية، حيث يقرّ أهلها بأن البناء محرّم، ولا يسوّغ بقاءها الناحية الفنية والجمالية في البناء، ولا أنها تراث إسلامي وعمارة إسلامية، وأما وصفها بأنها عمارة إسلامية فليس بصحيح، وإن كانت في بلاد المسلمين، ولا تُسمّى تراثاً إسلامياً، فإنّ الشرع لا يقرّها، والإسلام يأمر بإزالتها، وأما تدريسها بعد إزالتها فلا مانع من ذلك، ويكون على وجه التحذير منها، فيكون تدريسها يشتمل على ذكر صفتها قبل هدمها وزمان بنائها، وكذلك سبب هدمها وإزالتها».

**

وقد جاء هدم مدافن البقيع عن آخرها (بتاريخ 8 شوال 1344 هجرية) عقب ما يُعرف بـ«الدولة السعودية الثالثة»، وكان سبقها قيام دولتين قضى عليهما العثمانيون في فترة وجيزة، أولاهما كانت سنة 1221 هـ عندما احتل الوهابيّون المدينة المنورة وعاثوا فيها خراباً.

ويأتي هذا التحقيق ـ بمناسبة ذكرى شهادة الإمام الصادق عليه السلام ـ ليُقدّم صورة وافية عن البقيع؛ تاريخه ومكانته، وعن جريمة تحدّي مشاعر المسلمين بهدم قباب الأئمة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

البقيع تاريخيّاً

كان البقيع مقبرة قبل الإسلام، وقد ورد ذكره في مرثية عمرو بن النعمان البياضي لقومه:

أين الذين عهدتهم في غبطةٍ
بين العقيق إلى بقيع الغرقد.

إلا أنه بعد الإسلام خُصِّص لدفن موتى المسلمين فقط، وأحياناً كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعلّم بيده المباركة على قبر المدفون بعلامة، وعندما تُوفّي ابنه إبراهيم سنة 10 للهجرة، أمر بدفنه في البقيع، وقال صلّى الله عليه وآله: «ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون». والفرط هو المتقدّم للقوم.

بعد دفن إبراهيم عليه السلام، رغب المسلمون في البقيع، فاستصلحوه لدفن موتاهم بقطع الأشجار التي فيه، وذكر المؤرخون أنّ كثيراً من الصّحابة والهاشميّين ممّن توفوا في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وبعد وفاته، دفنوا في بقيع الغرقد، حتى قيل إنّ سواد من مات من الصحابة دُفن في البقيع وتفرّق الباقون في البلدان.

وكان اليهود يدفنون موتاهم في مكان آخر يعرف بـ(حش كوكب) وهو بستان يقع جنوب شرق البقيع. اشتراه عثمان بن عفان أيام خلافته وزاده في البقيع، فلما قُتل (35هـ)، دُفن إلى جنبه، ويقال إنّ بني أميّة أدخلوا ذلك الحش في البقيع، ثم أضحى مقبرة لهم.

وما أن تمّ دفن أئمة الهدى عليهم السلام في بقيع الغرقد حتى بُنيت على قبورهم القباب، بل يظهر أنّ القبّة أوّل ما بُنيت على قبر الإمام الحسن عليه السّلام.

الموقع

يُعدّ البقيع أعلى أودية العقيق، ويقع في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة للمسجد النبويّ، كانت تحيط به مزارع من الشّمال والشّرق والجنوب، إلا أنّه أصبح الآن ـ بعد توسعة المسجد النبوي الشريف ـ ملاصقاً لساحات المسجد، لا يفصلهما أي مبان أو منشآت.

المدفونون في البقيع

1- أئمّة أهل بيت النبيّ صلوات الله عليهم:

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام.

الإمام محمد بن عليّ الباقر عليه السلام.

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

وأمّا ما قيل عن دفن الصدّيقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام في البقيع، فهو لا يستند إلى دليل، لأنّ أميرالمؤمنين عليه السلام دفنها ـ بناءً لوصيّة منها ـ ليلاً وسرّاً، وموضع قبرها عليها السلام مجهولٌ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

2- الهاشميّون، ومنهم:

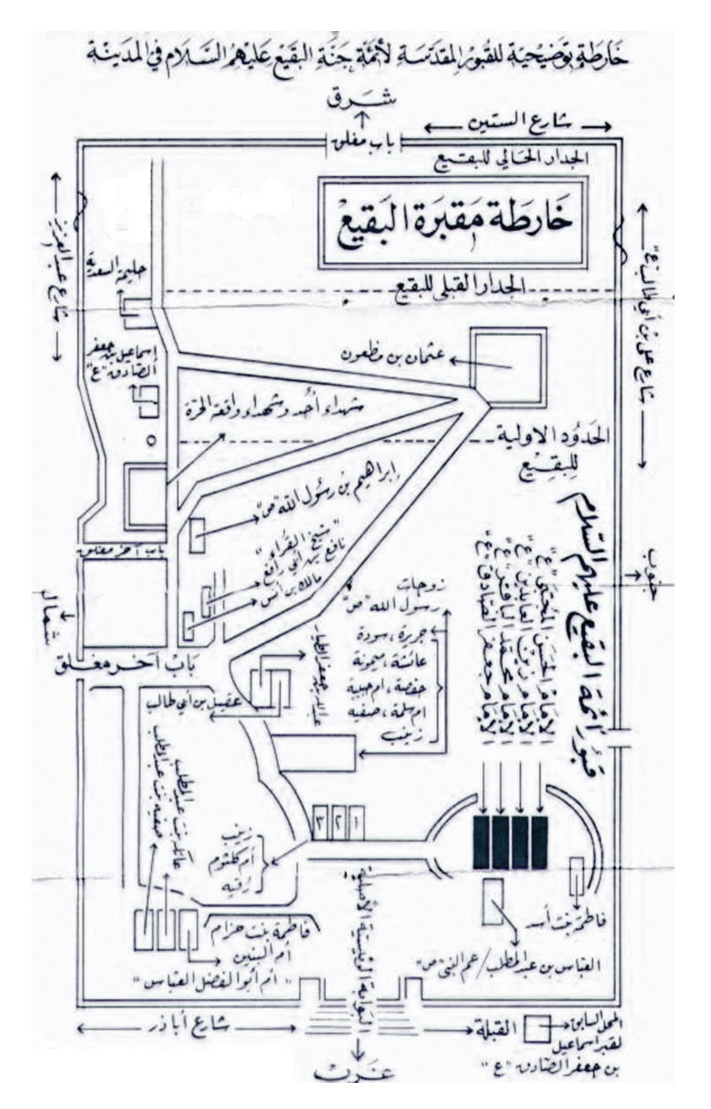
إبراهيم إبن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

السيّدة فاطمة بنت أسد أمّ أميرالمؤمنين عليهما السلام.
عقيل بن أبي طالب.
عبدالله بن جعفر زوج السيّدة زينب عليها السلام.
العبّاس بن عبد المطّلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه وآله.
عاتكة وصفيّة، عمّتا رسول الله صلّى الله عليه وآله. (بقيع العمّات)

3– زوجات رسول الله صلّى الله عليه وآله، وزوجة أميرالمؤمنين:
جميع زوجات الرّسول، دُفنّ في مقبرة البقيع، باستثناء أمّ المؤمنين خديجة عليها السلام المدفونة في مقبرة المعلاّة بمكّة المكرّمة. ومن المدفونات في البقيع، السيّدة أم البنين زوجة الإمام علي وأمّ أبي الفضل العباس عليهم السلام.

4– بنات رسول الله صلّى الله عليه وآله (أو ربائبه على رأي وجيه):
وهنّ زينب ورُقيّة وأمّ كلثوم.

5– الصحابة:
مرّت الإشارة إلى أنّ معظم الصحابة دُفنوا في البقيع، وكان أوّل من دُفن منهم هناك، الصحابيّ الجليل عثمان بن مظعون



(ت 2 هـ)، وقيل إنّه أوّل من دُفن من المهاجرين، أمّا أوّل الصحابة المدفونين بالقيع فهو أسعد بن زرارة الأنصاري (ت 1 هـ).

ممّا قيل في وصف البقيع

أكثر المؤرّخون والرّحّالة ـ في مختلف العصور ـ من وصف مقابر البقيع وقبابها، ولم يرد فيما ذكروه أنّ أحداً منهم أو ممّن عاصرهم من العلماء والفقهاء والمحدّثين استنكر تشييد القبور والبناء عليها والتعريف بها، أو قال بعدم جوازه، بل تُستشف من عباراتهم ألوان الإعجاب بتشييد هذه الصروح المذكّرة بأولياء الله تعالى.

ونكتفي هَهنا بالإشارة إلى نماذج ممّا ورد في المصادر التاريخية بهذا الخصوص:

1ـ يقول المسعودي (ت445هـ) في مروج الذهب حول مشاهد أئمّة أهل البيت عليهم السلام: «وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع، رخامة مكتوب عليها بسم الله الرّحمن الرّحيم الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرّمم..».

2– كما وصف محمد بن أبي بكر التلمساني المدينة المنوّرة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله: «وقبر الحسن بن علي عن يمينك، إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلاً، عليه مكتوب هذا قبر الحسن بن علي..».

3– يقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار (ت 643هـ) في كتابه أخبار مدينة الرسول عن مدافن البقيع: «في قبة كبيرة عالية قديمة البناء في أوّل البقيع، وعليها بابان، يفتح أحدهما في كلّ يوم للزيارة، رضي الله عنهم».

4– ويقول ابن جبير الرحالة المشهور (ت 614هـ) في رحلته في وصف بقيع الغرقد: «..و روضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن علي رضي الله عنه، وهي قبة مرتفعة في الهواء "..ّ ويلي هذه القبة بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول ويعرف ببيت الحزن، يُقال إنه الذي أوت إليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى..».

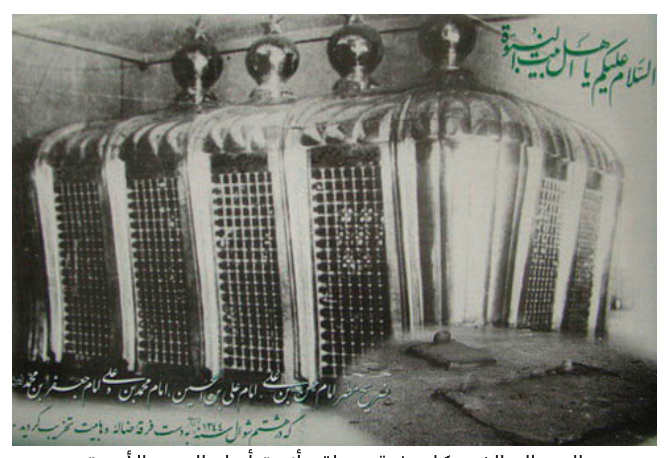
5– أما السمهودي (ت 911هـ) فيقول في وصف بقيع الغرقد: «تحوي العباس والحسن بن علي "..ّ وعليهم قبة شامخة في الهواء، قال ابن النجار: وهي كبيرة عالية، قديمة البناء».

من روايات البقيع

في «كامل الزيارات» عن صفوان الجمال قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخرج في ملأ من الناس من أصحابه كلّ عشية خميس إلى بقيع المدنيين فيقول: السلام عليكم أهل الديار (ثلاثاً)، رحمكم الله (ثلاثاً) ثم يلتفت إلى أصحابه فيقول: هؤلاء خير منكم...».

وفي «بحار الأنوار»: فلمّا أحسّ [رسول الله صلى الله عليه وآله] بالمرض الذي عراه أخذ بيد علي بن أبي طالب واتبعه جماعة من الناس وتوجه إلى البقيع، فقال للذي اتبعه: إنني قد أُمرت بالاستغفار لأهل البقيع، فانطلقوا معه حتى وقف بين أظهرهم، و قال: " السلام عليكم أهل القبور، ليهنأكم ما أصبحتم فيه مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها " .

آثار البقيع قبل هدمها



الشباك الذي كان فوق مراقد أئمة أهل البيت الأربعة

تثبت الصور ما تورده المصادر التاريخية عن القباب التي كانت تعلو قبور أئمّة أهل البيت عليهم السلام كالقبّة الموجودة على قبر رسول الله صلّى الله عليه وآله، لكنها هُدِمت (قباب البقيع) في 8 شوّال سنة 1344 هجرية.

وكان السلطان عبد المجيد العثماني أمر سنة 1270 هجرية بتجديد عمارة المسجد النبويّ والقبّة النبويّة الشريفة، واستمرّ البناء نحو أربع سنين، وكذلك أمر بتجديد بناء قبّة أئمّة البقيع بعينِ البناء الذي بُني به قبر رسول الله صلى الله عليه وآله.

يتحّث السيّد محسن الأمين في كتابه «كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب» عن الشُبّاك الذي صُنع في إيران لمراقد أئمّة البقيع، وكيف أنّ المتعنّتين من أهل المدينة أهملوه حتى نقصت ألواحه الفولاذيّة، فاضطُرّوا إلى إكماله بقطعة من الخشب بعد دهنها بما يقرب من لونه والكتابة عليها.

يقول قدّس سرّه: «ورأيتُ القطعة الخشبية ظاهرة فيه مقصّرة عنه في الرونق عند تشرّفي بزيارة المدينة المنوّرة بعد الحجّ عام 1321 هجري، وبعد ذلك عند تشرّفي بزيارتها من دمشق عام 1330 هجري. وبقي هذا الشبّاك حتّى أزاله الوهابيّون عام 1343 [1344] هجري حين دخلوا المدينة المنوّرة وهدمهم لقبّة أئمّة البقيع عليهم السّلام وقبورهم المقدّسة».

هدم قباب البقيع

زار بعض المستشرقين الإنكليز المدينة المنوّرة قبل استيلاء الوهّابيّين عليها، فدُهش لروعتها قائلاً إنّها من أجمل مدن العالم وأن لا مدينة في الشرق تُشبهها من حيث التنظيم وحسن التخطيط سوى اسطنبول عاصمة الخلافة.

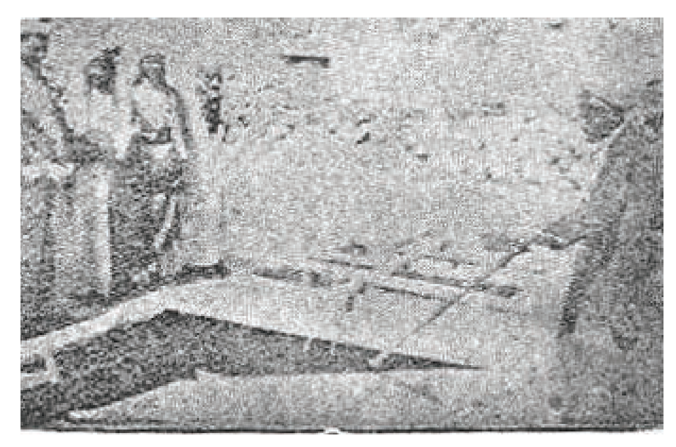
أمّا الرحّالة الغربي آلدون ريتر الذي زار المدينة المنوّرة - للمرّة الثانية - بعد هدم قباب البقيع، يصف زيارته للبقيع قائلاً: «حينما دخلت إليه وجدت منظره كأنه منظر بلدة قد خربت عن آخرها " .. " وقد كان أشبه بالبقايا المبعثرة لبلدة أصابها الزلزال فخرّبها كلّها، لقد هُدّمت واختفت عن الأنظار القباب البيضاء التي كانت تدل على قبور أولاد النبيّ..».

الثّامن من شوّال سنة 1344 للهجرة

عندما استتبّ الأمر للوهابيّين ومَلَكوا الحجاز قاطبة، عمدوا إلى تخريب المعالم الإسلامية في مكّة وجدّة والمدينة، فهدموا في مكّة قباب عبدالمطلب جدّ النبيّ، وأبي طالب عمّه، وخديجة أُم المؤمنين، وخربوا حجرة مولد النبي و حجرة مولد فاطمة الزهراء عليها السَّلام، ولمّا دخلوا جدّة هدموا قبّة حواء، وخرّبوا قبرها، بل خرّبوا في هذه البلاد كلّ القباب والمزارات والأمكنة الّتي يُتبرّك بها، ولما حاصروا المدينة هدموا مسجد حمزة ومزاره، لوقوعهما خارج المدينة المنورة.

يقول أُستاذ علم الاجتماع في جامعة بغداد الدكتور علي الوردي في كتابه «لمحات اجتماعية»: «ظلّت هذه القبور [البقيع] سليمة أكثر من أربعة أشهر دون أن يمسّها أحد بسوء، ولكن اتُّهم ابن سعود في تنفيذ مبدأ الوهابية لإبقائه عليها، فأرسل في شهر رمضان سنة 1344 كبير علماء نجد عبدالله بن بليهد من مكة إلى المدينة للعمل على هدم القبور، وعندما وصل ابن بليهد إلى المدينة اجتمع بعلمائها ووجّه إليهم الاستفتاء التالي:

ما قول علماء المدينة - زادهم الله فهماً وعلماً - في البناء على القبور واتّخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهيٌّ عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ وإذا كان البناء في مسبلة كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبنيّ عليها، فهل هو غصب يجب دفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ وما يفعله الجهّال عند هذه الضرائح من التمسّح بها ودعائها مع الله، والتقرّب بالذبح والنذر لها، وإيقاد السرج عليها، هل هو جائز أم لا؟ وما يُفعل عند حجرة النبيّ من التوجّه إليها عند الدعاء وغيره، والطواف بها وتقبيلها والتمسّح بها، وكذلك ما يُفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين الأذان والإقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة، هل هو مشروع أم لا؟ أفتونا مأجورين وبيّنوا لنا الأدلة المستند إليها، لا زلتم


قباب البقيع أثناء الهدم

ملجأ للمستفيدين»!

ترى أنّ الأسئلة طُرحت بشكل أُدرج فيها الجواب، وأَلزم المفتين على الإجابة بما يرتأيه السائل، وفعلاً جاء الجواب الذي أراده «فقيه السلطان»، فعلى أثر صدور هذه الفتوى ـ الجواب ـ استقدمت «جماعة الإخوان»، وهي أوّل أجنحة الحركة الوهابية، جميع بنّائي المدينة المنوّرة وباشرت بهدم قباب قبور البقيع، فأحدثت هذه الجريمة ضجّة مدوّية في أقطار العالم الإسلامي، خصوصاً الشيعية منها، وأعلن علماء الشيعة الحزن العام وإظهار الحداد، وعُقد في مقام الإمام الكاظم عليه السلام في بغداد إجتماع حضرته جماهير كثيرة، وتُليت فيه البرقيات والرسائل الواردة في هذا الشأن، كما نُظمت البرقيات وأُرسلت إلى ملوك وعلماء العالم الإسلامي في أقطارهم المختلفة، وجرى مثل ذلك في كربلاء والنجف.

يضيف الدكتور الوردي أنّ الجرائد العراقية أخذت تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب أعماله، فقد كتبت جريدة (العراق) في مقالة افتتاحية لها تقول: قُضي الأمر، وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة، فقام بأكبر خدمة لسيّده ابن سعود، ولم يعلم بأنّ مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الإسلامي فآلمه أيّما ألم.

كما نشرت مقالة أخرى بقلم إسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها (الطامة الكبرى والأماكن المقدسة في الحجاز) جاء فيها: أيّها المسلمون، ما هذا السبات وما هذا الجمود الّذي أدّى بكم إلى السكون وإلى عدم الاكتراث بهذه القضايا المؤلمة، والأدوار المخزية الّتي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة؟

وأصبح يوم يوم 8 شوال يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلاء، حيث تغلق فيه الأسواق وتخرج مواكب اللّطم.

جواز زيارة القبور والصلاة عندها والبناء عليها عند المسلمين السُنّة

أولاً: زيارة القبور والصلاة عندها:

1 ـ الإمام الشافعي: «ولا بأس بزيارة القبور، ولكن لا يقال عندها هَجْر، وذلك مثل الدعاء بالويل والثبور والنياحة، فإذا زرت فاستغفر للميت ويرقّ قلبك». البيهقي نقلاً عنه في معرفة السنن والآثار، 3/203، باب زيارة القبور.

2ـ الحاكم النيسابوري: «قد استقصيت في الحثّ على زيارة القبور تحرياً للمشاركة في الترغيب، وليعلم الشحيح بذنبه أنها سنّة مسنونة». مستدرك الحاكم، 1/377

3 ـ ابن حزم: «وتستحب زيارة القبور، وهو فرض ولو مرة، وقد صحّ عن أُم المؤمنين وابن عمر وغيرهما زيارة القبور، وروي عن عمر النهي عن ذلك ولم يصح». المحلى: 5/160 المسألة 600

4 ـ أبو حامد الغزالي: «زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكّر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار». إحياء العلوم: 4/521

وانظر: الفقه على المذاهب الأربعة: 1/540، خاتمة في زيارة القبور.

وأمّا الصلاة عند القبور، فلا أدلّ على جوازها من صلاة المسلمين جميعاً، عند حجر إسماعيل حيث مدفنه وأمّه هاجر عليهما السلام.

ثانياً: جواز البناء عليها:

1ـ استدلال المفسّرين بقوله تعالى: ﴿ ..قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا.. ﴾ الكهف: 21، حيث اعتبروا ذلك تقريراً من القرآن الكريم بجواز بناء المساجد على القبور.

2ـ المساجد المشيّدة على قبور الأنبياء، وعندما فتح المسلمون بيت المقدس، عمدوا إلى تجديد عمارة الحرم الإبراهيمي واتخذوه مسجداً لهم.

3ـ الأبنية والقباب المشيّدة على قبور أئمّة المذاهب الأربعة، أبو حنيفة في بغداد والشافعي في مصر ومالك في المدينة وابن حنبل في بغداد، قبل أن يجرفه نهر دجلة.

وغير ذلك من الأدلّة الكثيرة.

في الختام: إن السلطات السعودية مدعوّة إلى الخروج من عهدة العدوان على الله تعالى ورسوله، الذي أوقعها في ورطته التكفيريّون الوهابيون. وهذا التحقيق دعوة صادقة لكلّ غيور على الإسلام، ليعمل من موقعه وحسب استطاعته للإضاءة على مظلومية رسول الله صلى الله عليه وآله من خلال إزالة الآثار التي تعزّز علاقة الأجيال به، ومن خلال مظلومية أئمّة المسلمين من أهل البيت المدفونين في البقيع، وأمّهات المؤمنين وأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله.